عَمّة رَفيق ..

قصة بقلم ديزي الأمير

تطلعت من النافذة ، غابة خضراء غامقـــة ، بقايا من شمس لا تحيلها الى سواد . سكوت عميق يغطي الكون برداء لا انثناء فيه .

عادت تجلس على الكرسي الهزاز ، حركته فاهتز هو ولكنها هي لم تهتز . « ليس كرسي اليوم زفزفته المعتادة . من اين تأتي بالصوت في هذا الصمت ؟ » . فتحت المذياع ، فارتفع الصوت بالكـــلام الغريب » ماذا يقول المذيع ؟ وماذا يعلق على هذه الموسيقى الغريبة ؟ هل تستطيع ان تجيبه الاصوات الاخرى ؟ أما من صوت عربي فـي هذه الغربة السحيقة ؟ .

الليلة آخر الليالي في هذا البلد الغريب . صباح اليوم انتهت الحمامات المعدنية ، وانتهى التدليك وأفرغت العاملة اخر وجبة من أكداس الطين الاسود على الانحاء المريضة من جسمها .

قال لها الطبيب ، عبر لفتيهما الغريبة المكسرة ، انها تحتاج الى راحة جسم وراحة فكر وراحة عواطف « راحة جسم ! راحة فكر ! وراحة عواطف !! » .

أجابته انها غير قادرة على توفير أي من هـــذه الراحات التي يصفها . سأل : ولم ؟ بم تجيب ؟ وكيف تفهمه من هي ؟ هل تستطيع ان تعلن عن المهمات المعلقة على كتفيها ورأسها وذراعيها ؟ وهي التـي حاولت أن تحجب شخصيتها الحقيقية في هذا البلد الغريب ؟ هي التي حاولت أن تتخفى فلا يعرف أحد انها هنا تريح جسدها وفكرها وعواطفها ؟

قال أخوها يوم قرر الطبيب في بلدها أنها مرهقة الى حـــد الانهيار وبحاجة الى جو جديد ، انى منتجع لا تقوم فيه بأية مهمـة أو عمل ، الى الاسترخاء والنوم وتجميل التفكير .

قال أخوها بعد تفكير طويل ودراسة عميقة : « ومن سيساعدني ؟ » عاد الطبيب الغريب يسأل . ما تراها تعمل حتى أصيبت بكل هـذا الاجهاد ؟ وهذا التوتر ؟ واحتارت ماذا تجيب ؟ هل تشرح طبيعة عملها؟ هل تقول انها أخت أخيها ؟

او تعرف عليها السياح العرب ، يقـــول أخوها ، فسيقولون تبرجزوا وهم المناضلون ، تبرجزوا وهم المسؤولون ، تبرجزوا وهم المكافحون . « نعم هي أخت المناضل وهي أخت المسؤول وهي أخت المكافح يجب أن لا تتبرجز . الحس بالتعب برجزة . وانهيار الجسد امام المسؤوليات برجزة . وضعف الاعصاب أمام الارهـاق والسهر برجزة » .

نذر اخوها نفسه للقضية . رهن حياته لمسيرة هذه القضية . كان مندفعا متحمسا منذ أول ادراكه لهموم الوطن وكانت هي أصغر سنا منه ، وهو شاب البيت الوحيد ، فتأثرت بأقواله وآمنت بأعماله وتحمست لقوة شخصيتـه فصارت تدعو لآرائه وتكرر أقواله وصـار هو يشرح لها ظروف القضية . جعلهـــا كاتمة أسراره وهي الشابة الوحيـدة في البيت ، لم تدر الا وهي تخوض عملا نضاليا كبيرا . ووجد أخوها فيها رفيقة النضال فازدادت حماستها وشغلت كـل أوقاتها بالعمل .

ولكن أخاها . ولكن أخاها وجد خلال كل هذا الاندفاع ومـــع كل هذا النضال وبجانب كل هذا العمل ، وجد رفيقة أخرى ، رفيقة من نوع آخر . رفيقة أخيها الجديدة صارت زوجته . دخلت حيـاته من بابها السهل . وصارت الزوجة المدللة « وبقيت هي .. هي أخته رفيقة النضال » .

الناس يعرفون هذا تماما ، يعرفون أنها كاتمة أسراره ، هـــي وحدها كاتمة كل هذه الاسرار الكبيرة . ويعرفون ان وراء شخصيته الفذة الاخاذة أخته نذرا للقضية وانه يستشيرها في كـل تصريحاته وخططه .

ولان الناس ينتظرون من المرأة أن تكون أكثر كلاما من الرجـال صاروا يلاحقونها أين وجدوها بأسئلة مباشرة أو غير مباشرة ، ولكنها نجحت في الامتحان وصمدت امام اغراء الســـؤال ، حتى اصبح مريدو اخيها ومؤيدوه يسمونهـا اخت الرجـال ، « منحوهـا شرف الاعتراف بأختهم » !

هي ، كانت تدري ان القضيـــة أهم من آية مغريات بشرية ، وقاطعت لاجل هذا عوالم النساء . فلا ارتياد لصالونات حلاقة او دار ازياء او تجول في الاسواق او زيارات صباحيـة . « هـذه عوالـم تضييع الوقت وهي تدري أهمية الوقت في العمل » .

واستغربت أن ترى أخاها وقد وضعت زوجته ولدا وصار ينادى

ابا رفيق ، استغربت انه اصبح يمضي جزءاً من وقته الثمين في ملاعبة ابنه وازدادت المسؤوليات عليها . أما هي فصارت تنادى عمة رفيق « منحوها شرف عمومة رفيق ولم تعد تنادى أخت الرجال ، صار الرجال طفلا صغيرا » .

« لو كانت كنيتها أما لرفيق ؟ فكرة لم تساورها من قبل « كل ما تعرفه من عروض الزواج ، خطبتها في أول صباها لرجل لم تره الا من خلال الهدايا التي قدمتها لها أمه وأخته ثم ... قرر أبوها ان الخطيب لا يناسبها فارجعت الهدايا . وتساءلت لم ناسبها ؟ ولم لم يعد يناسبها ؟ ثم يجب أبوها أبدا عن هذا السؤال لا من خلال تساؤلها لنفسها ولا من خلال استفسارها من امها : أبوك يرى ان هذا هو الافضل .

« ماذا جرى لتلك الهدايا ؟ ومن يلبسها الآن ؟ » ..

حين يعود أخوها من أسفاره يحمل لزوجته ولرفيق ولبقية الاولاد هدايا . وهي .. هي يحمل لها عددا جديدا من الكتب السياسية .

ذات مرة رأت زوجة أخيها في جلسة مع زائراتها واحداهن تكشف لها المستقبل في فنجان القهوة .. فتقدمت لها بفنجانها . وفي المساء .. تساءل أخوها باستنكار : أهذا هو مستواها الفكري ؟ أتسف هي الى حد انتظار معرفة المستقبل من فنجان قهوة ؟ نحن نصنع المستقبل ، نحن الذين نبنيه ، فهل نلجأ الى فنجان يخبرنا عما يجب ان نعمل ، عما سيحدث ؟

وتساءلت ما كان يحدث لو وقفت أمام المرآة تتبرج كما تفعل زوجة أخيها ؟ قال جدها : انها زوجة ويجب ان تتزين لزوجها لترضيه ، أما أنت فهل ترضين أن تتزيني لاصدقاء أخيك ؟ وماذا يقول الناس لو اهتم بك أحد هؤلاء ؟ ولو .. ولو لا سمح الله ، قال اخوها ، أحبك واحد منهم ، فهذا معناه انني أشركك في مهمتنا الوطنية لاجد لك زوجا . أنت محصنة ضد كل هذا بتصرفك الرصين وكفاك فخرا انك أخت الرجال ... وضحك فرحا : أليس كذلك يا عمة رفيق ؟

عادت تطل من النافذة ، ازدادت انقابة المحيطة بالفندق عتمة . غابت الشمس من مدة . مرت فترة الغروب وجاء الليل الطويل . هذه آخر ليلة لها في هذا البلد الغريب . حاذرت فيه ان ترى وتشاهد ويتعرف عليها . هذه آخر ليله في هذا البلد الغريب ولم تتعرف هي على الليل فيه . شاهدت الشوارع المؤدية للمصح في النهار وشاهدت هناك غرفة التدليك بالايدي والتدليك بالماء وغرفة الطين « ماذا رأت في هذا البلد الغريب غير صور مائه المعدني ؟ » .. « وغرفتها ماذا فيها غير جدرانها وسقفها ونافذتها الوحيدة تطل على غابة خضراء صباحا ، معتمة مساء ،سوداء ليلا ، موحشة وقت الارق » .

دق جرس المطعم يعلن ساعة تناول العشاء ، وهي عادة لا تنزل الى القاعة بل تطلب العشاء الى غرفتها « اليوم ، هذه الليلة هي الاخيرة في هذا البلد الغريب . ستنزل الى المطعم وتختار مائدة منزوية بعيدة عن نظرات الفضوليين » .

في طريقها الى المطعم شاهدت غرفة مضاءة محشورة بالناس . غرفة تراها لاول مرة مكتوب على بابها بالضوء الاحمر (بار) بكل اللغات التي يمكن أن تميزها .

كانت الغرفة موجودة ومقفلة ساعات النهار . الليل عالم لان لم تتعرف عليه طوال هذه الاسابيع الثلاثة « فهل أراحها قضاءالليالي الطويلة في غرفتها تطالع الكتب السياسية ؟ » عالم المطعم جديد . فكيف حرمته كل هذه الليالي ؟ ما الذي أغراها بتناول العشاء في غرفتها ؟ ما الذي يخيفها كل هذا الخوف من الليل ؟ وهي المناضلة أخت الرجال ، عمة رفيق ؟ والنهار هل كانت أكثر جرأة فيه ؟ أنسيت أنها تتناول غداءها في مطعم (المصح) المملوء بالشيوخ والعجزة والمرضى ؟ وفطورها ؟ مقصور على الماء المعدني يصلها من حنفية الشرب الطالعة في غرفتها ؟

تذكرت كل هذا . لم تصدق انها هي نفسها أمضت هذه الاسابيع الثلاثة الطوال وفق برنامج طبي يزعم أنه يريحها جسدياً وفكريا ونفسيا ! « ثلاثة أسابيع طوال ، ستعود بعدها الى الوطن . الى القضية . الى العمل . تواصل الليل فيه بالنهار وتساوي فيه الناس نساء ورجالا .

ورددت بصوت عال رجال ونساء رجال ونساء « أنسيت انها أخت الرجال ، انها عمة رفيق ؟ » .

« ما معنى ان لا تنادى باسمها ؟ أبعد كل هذا النضال ونكران الذات والتضحية تم تتوصل حتى ان تسمى باسمها ؟ » .

« أتراه شرفا ان لا تكون امرأة ؟ امرأة فقط ؟ لم هي أخت الرجال ؟ ولم هي عمة طفل وليست ... ليست زوجة رجل ؟ » .

كانت تأكل الحلوى ، القسم الاخير من وجبة العشاء ولا تذكر ما تناولت قبله من أصناف .

تأملت من حولها .. هناك طاولات عليها رجال وأخرى عليها نساء وثالثة عليها من الجنسين « وهي .. هي وحدها لا تدري الى أي من الجنسين تنتمي » .

وعادت تتأمل الموائد ، أترى الناس يأكلون نفس الاصناف التي قدمت لها ؟ على بعض الموائد أقداح نبيذ . العالم الذي لم تدر انه موجود حقيقة . وانه مباح للجنسين . فتشت بعينيها عن النادل . ستطلب منه قدح نبيذ . تسمرت على الكرسي وعيناها تبحثان عنه . وجدته يتنقل بين الموائد ، يحاور جالسيها يتبادل معهم الحديث وتعلو أحيانا ضحكات وكذلك .. قهقهات !!

مر بها النادل مسرعا . لم يلتفت اليها . لم يحس بوجودها . « وهي التي تخفت طوال هذه الثلاثة اسابيع ! هي التي حجبتنفسها كل هذه السنوات التي لا تريد ان تتذكر كيلا يتبعها فضول الآخرين » ، لا يعيرها هذا النادل ، حتى هذا النادل ، اهتمام التفاتة ؟!

صوت ارتفع . اكتشفت بعد لحظة انه صوتها وانها تنادي . وجاءها النادل . طلبت منه كأس نبيذ . تطلع اليها بتعجب واستنكار. عادت تكرر طلبها قال : الآن وبعد انتهاء العشاء ؟ نحن في مطعم ملحق بالمصح وقد انتهى وقت تقديم النبيذ . هناك ، على يمينك وانتخارجة من الباب الرئيسي ، البار ، وهو يقدم الخمور الى مطلع الفجر .

ثم تركها قبل ان يسمع تعليقها . « أيتحداها هذا النادل ؟ أيدري من هي ؟ اذا كانت قد تخفت فليس معنى ذلك انها مهملة .

هناك في بلدها ألف شخص وشخص يتمنون لو يتبادلون الحديث معها ، لو يمكنهم أن يعرفوا بعض اخبارها ، بعض شؤونها ، بعض القضايا عن .. عن .. عن أخيها » .

ولاول مرة وجدت نفسها تسأل : اخوها نذر نفسه للقضية ، وهي ؟ هي نذرت نفسها لمن ؟ للقضية أم لاخيها ؟

النادل امامها يقدم لها الفاتورة لتوقع عليها . كان هذا اعلانا واضحا عن انتهاء فترة العشاء . قامت وسارت باعتزاز ، بثقتها المعروفة عنها في بلدها . غدا سنكون في الوطن ، في بلدها الذي يعتز بها وينتظر منها ان تتفوه بكلمة .

قربت من المصعد واذا به موجود ، واقف ، فارغ ، صامت . دخلته وقبل ان تمد اصبعها تكبس زر طابقها ، عادت ففتحت الباب واتجهت صوب الكلمة المكتوبة بالضوء الاحمر المتعددة اللغات .

كان البار مزدحما والدخان يملأ سماءه والموسيقى تنبعث لا تدري من أين .

مشت بين الموائد المشغولة . ليس من يرشدها الى طاولة شاغرة . هناك في أقصى الزاوية طاولة صغيرة سارت اليها وجلست على كرسي . « بقي الآخر فارغا فأحست بارتياح حيث لا يعرفها أحد » .

« هل تطلب كأس نبيذ ؟ هل تطلبه أحمر أم أبيض ؟ أيهما يعلن عن نفسه بجرأة ؟ » .

تطلعت حواليها . لا أحد ينظر اليها . ستطلب ما تريد ، لا أحد ينظر اليها « هل هذا مريح ؟ » .

الضوء انخافت وسحب الدخان ستغطيها فلا يراها أحد « أتريد ألا يراها أحد ؟ » .

هل يصيبها دوار اذا تناولت نبيذا ؟ واذا أصابها الدوار « من يسندها ؟ » واذا سندت هل يسمع الناس هناك في بلدها هذا الخبر ؟

سمعت شخصا يقف ويده تشير الى الكرسي الفارغ . أشارت برأسها ان تفضل . فتفضل رجل تشبه ملامحه ملامح أبناء بلدها فأدارت وجهها عنه . كانت صفحة الخمور مفتوحة امامها في قائمة المشروبات فأغلقتها بسرعة .

« أصابع يدها المعروفة تشبه أصابع الرجال » فسحبتها . رفعت رأسها ، كان جليسها يتأمل كل الآخرين . كان يدير رأسه هنا وهناك بخط سير متدرج فتتبعت عينيه . وقعت على فتاة فارعة الطول شقراء . جميلة الوجه تحمل صينية عليها كؤوس وفناني .

تأملت وجهه ، فيه لهفة وشوق . قربت فتاة البار من مائدة مجاورة لهما وقبل ان تضع صينيتها هناك وصلت اليهما وضحكت للجليس ثم عادت آتى الطاولة الاخرى تنزل الصينية وتفتح الفناني وتسكب المشروب .

عادت اليهما فتاة البار وأسرّت في اذن الجليس كلمة . كلمة لم تفهمها ، كلمة بلغة اهل هذا البلد الغريب . جليسها غريب ، هذا أفضل « ولكن .. لم هذا أفضل ؟ » عينا الجليس تمشيان مع فتاة البار وفتاة البار تجد لحظات بل لحظة او أقل لتصل الى الجليس تسر في أذنه كلمة غريبة جديدة .

في جولتها التالية وقفت فتاة البار لحظات وفي جولتها الاخرى دقيقة .. ثم دقائق . وهنا .. هنا تطلع الجليس اليها .. اليها هي ، تأملها .. تأمل الطاولة الفارغة امامها « وتساءلت عيناه ... سألها هل انتهيت من شرابك ؟ أحنت رأسها : أن نعم » .

المصعد لا يزال هناك موجودا واقفا فارغا ولكنه كان يتكلم .

بيروت ـ بغداد

ديزي الامير

صدر حديثا

ايام الحب والموت

رواية : للكاتب الفلسطيني

رشاد ابو شاور

منشورات دار العودة

٢٥٠ غ . ل